كان مصطفى أول من فعل ذلك من بين جميع الموظفين الذين أعرفهم في الدائرة التي أعمل فيها ، وفي الدوائر الاخرى التي أزورها بين الفينة والاخرى ، وقد اكسبه ذلك العمل ، على التو ، نفوذا جديدا في المكتب ، وصار — دون اتفاق مسبق من احد — يلعب دور الرئيس .

على أن مصطفى نفسه ما لبث بعد اقل من ثلاثة أيام أن استغنى عن جميع الاحتياطات المصطنعة التي كان يتخذها ، وصار يتمنطق بالمسدس فوق قميصه الخاكي ، ووضع على صدره شعارا نحاسيا لامعا وعلق وراءه ، على الجدار ، خارطة مضرجة بالدم ، ومعنونة بأبيات من الشعر الوطني .

وامس جاء مصطفى الى طاولتي ، وأخذ يتحدث بصوت غاضب ، ولكن من الواضح انه يجعله عاليا قدر الامكان متوقعا مني أن أسمع ، الا انني لم أفهم شيئا ، وقد هدأت من فورته بحركة متصلة من كفي ، ثم قلت :

— « لا اسمع شيئا .. لا أسمع شيئا ، فلا تتعب نفسك ... »

وصمت قليلا ، ثم احتقن وجهه بالغضب من جديد ، وأخذ مرة اخرى يصرخ بملء صوته ، وأخيرا ، انحنى ، وكتب على ورقة أمامي :

— « ماذا فعلت من اجل وطنك ؟ »

ونظرت اليه مندهشا ، ولكنني لم أستطع أن أجيب لتوي على ذلك السؤال المفاجيء ، وقد شعرت — خصوصا — انه سؤال مهين اذ جاء على لسان مصطفى ، وقد انتهز هو فرصة حيرتي وترددي فالتفت الى بقية الموظفين الذين كانوا يراقبوننا صامتين ، واشار اشارة جانبية نحوي ، وأخذ يتحدث اليهم ضاربا بجمع قبضته ، بين لحظة واخرى ، على الطاولة ، ملوحا بذراعيه ، متقدما خطوة الى الامام متراجعا الى الوراء بحركات شبه مسرحية ، وكان من الواضح ، وانا اراقب عروق رقبته ، ان صوته آخذ بالعلو درجة وراء درجة ..

وفجأة تذكرت ذلك الحلم الذي عشته فترة من الزمن ، وقلت نفسي : « ها هو ذا مصطفى يأخذ مكاني ! » فأخذت ابتسم ، الا انه رآني ، فتقدم نحوي والشرر يتطاير من بين اسنانه ، وامسك بياقتي بكلتا يديه وأخذ يهزني بضراوة وهو يقول شيئا ، هو أغلب الظن شتيمة واحدة مضى يكررها مرة تلو المرة .

منذ زمن طويل لم استخدم عضلاتي التي كانت ذات يوم قوية ، وقد انتابتني في تلك اللحظة قشعريرة من الغضب لم اشعر بمثلها في حياتي . أمسكت زنديه بقبضتي وأخذت اضغط بكل الغضب الذي كان يستعر في صدري — وقد رأيت في عينيه انحناءة الضعف ، وحين فك اصابعه عن ياقتي ظللت ممسكا بزنديه ، وكان يقاوم جاهدا ، الا أنني ضغطتهما الى أدنى ببطء ، حتى أوصلتهما الى سطح الطاولة ، فضربتهما هناك مرتين ، ثم تركتهما ، وجلست .

وظل مصطفى لحظة ينظر الي مشدوها ، دون أن تنفرج شفتاه عن كلمة . الله الله يا طيرة حيفا ! هكذا تصبح قبضات الايدي من فرط ما تعاملت مع الارض والوعر والشتل ! الله الله يا طيرة العز ! حتى عندما كنت طفلا صغيرا كنت أرى في الحقول المكان الوحيد الذي يصح فيه الكلام . كنت امضي النهار وانا أدق بالمنكوش ذاك التراب الذي سرعان ما ينشف من جديد ، أحمل الحجارة ، أستل النبات الضار من جذوره الضاربة في عمق التراب .. الله الله يا طيرة العز ! كنت معروفا هناك — وأنا ما أزال فتى — بأن القوة الكامنة في زندي هي من الضخامة بحيث لا يقوى أحد على تحديها ، ولطالما انتظرت أمام الجامع ، في الطيرة ، حتى يفرغ الشبان من اختيار بطلهم حتى أثني له ذراعه على بلاطة